مذاهب الناس في اللباس

لقد كان من رأينا دائماً انهُ الاولى بالخاصَّة من الامم الشرقية ان تقتدي بالخاصة من الامم الغربية في ملابسها حتى لا يظهر لخاصَّة الغربيين امتياز على خاصَّة الشرقيين . كذا فعل اليابانيون والسيامبون وقد اخذ الصينيون والهنود يجارونهم في الاقتداء بالاوربيين مركباً ووزراء وقواداً وتجاراً رجالاً ونساء جرياً على سنَّة عامَّة اشار اليها ابن خلدون حيث قال ان المغلوب مولع ابداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر احواله وعوائده

وقد عرضت هذه المسألة الآن على بساط البحث لما استفتت مصر عن الدولة العثمانية وامر سلطانها ان يقابلهُ المهنئون بالردنجوت الاوربي بدل السترة الاسطنبولية . فرأينا ان نشبع الكلام عليها عسى ان يكون فيهِ مرشد لاختيار اصلح الملابس الرسميَّة

ظهر لجمهور الباحثين في هذا الموضوع ان الاصل في اللباس الزينة او التجمل وقد شرحنا ذلك بالاسهاب في المجلد السادس عشر من المقتطف حيث قلنا اختلف العلماء في حقيقة الداعي الذي دعا الناس الى لبس الثياب فقال قوم هو الاستحياء من كشف العورة وقال غيرهم هو اتقاء البرد والحر وقال آخرون هو مجرَّد التزيُّن والتجمُّل . اما القائلون بالاستحياء فيعترض عليهم بان شعوباً كثيرة لم تزل حتى يومنا هذا عارية الابدان لا لباس عليها وهي لا تستحي من ذلك ولا تحسب ان في العري ما يوجب الحياء . فلو كان الاستحياء هو العلة الداعية الى لبس الثياب ولو الى لبس ما يستر العورة منها لكان لبسها عامًّا شاملاً لجميع طوائف الناس وزد على ذلك ان البعض يكتفون بلبس خرقة على صدورهم او ظهورهم ويتركون بقية ابدانهم عارية فاذا خلعوا هذه الخرقة حسبوا نفوسهم عراةً واستحيوا ان يظهروا امام الغريب واذا كانوا لابسين لها حسبوا انهم في ابهى الحلى واخلل مع ان ابدانهم كلها عارية الا ما تستره الخرقة المشار اليها

وما لنا ولابعاد الشواهد فنحن الذين نلبس الطربوش ذا العذبة (الطرَّة او الشرابة) اذا كان احدنا في السوق او في ناد من النوادي ووضع يدهُ على رأسهِ فوجد ان العذبة مقطوعة من طربوشهِ خجل واستحيا كأنهُ عارٍ من اللباس او كأنهُ ارتكب جريمة . وكذا اذا كان ممَّن يلبسون الثوب الاوربي ونسي ان يربط رقبتهُ بالربطة المعهودة . ومعلوم ان عذبة الطربوش وربطة الرقبة من الفضلات الزائدة التي لا تستر عورةً . وقس على ذلك فقدان كل

ما اعتادهُ الانسان في لباسهِ سواءٌ كان لازماً لستر بدنهِ او غير لازم وسواءٌ كان استعمالهُ قديمًا او حديثًا

وقد ذهب البعض ومنهم ادلف باستيان وجاغور وغيرهم الى ان العُرْي غير مستهجن في السود كما هو مستهجن في البيض لان سواد البشرة يستر ما يُرى من الاختلاف بين اجزاء البدن . والظاهر انهم نسوا اعتيادهم رؤية السود عراة وعدم رؤية البيض عراة مثلهم فلم يعودوا يستهجنون الاولى كما يستهجنون الثانية ومثل ذلك رؤية النساء الاوربيات عاريات الايادي والصدور والظهور في المراقص (البألات) فان الشرقي الذي يرى ذلك اول مرة يقف مبهوتاً خجلاً مما يرى ثم اذا تكرَّر ذلك على بصرهِ حسبهُ امراً عاديًّا ولم يعد يلتفت اليهِ

ومفاد ذلك كلهِ ان ما نشعر بهِ نحن من الحياء والخجل اذا كنا عراةً مبنيٌّ على اعتيادنا لبس الثياب لا على شعور طبيعي عام لاننا نشعر مثل هذا الشعور عينهِ اذا كان الطربوش بلا عذبة او الطوق بلا ربطة او اذا لبسنا ثيابًا في مكان جرت العادة ان يُلبَس فيهِ غيرها . ولكن لو شاع لبس الطربوش بلا عذبة والطوق بلا ربطة لصرنا نستحي بالعذبة والربطة كما نستحي بفقدهما الآن وكذا لو شاع كشف الساعد والصدور لصرنا نستحي بتغطيتهما

والقائلون ان الثياب وُجدت اولاً لدفع عوادي البرد والحر يُعتَرَض عليهم بان العراة من الشعوب يبقون عراة في ايام البرد والزمهرير كما في ايام الحر الشديد والمكسيين لا يخلعون ثيابهم ولو في اكثر الاوقات اعتدالاً واقلها طلباً للبس الثياب . ولا ينكَر مع ذلك ان الذين اعتادوا لبس الثياب اعتادوا ايضًا ان يتّقوا بها البرد والحرّ

بقي مذهب القائلين ان الثياب وُجدت اولاً لاجل الزينة فان الزينة عامَّة في المسكونة كلها بين الذين يلبسون ثيابًا والذين لا يلبسون . ومعلوم ان بعض اعضاء البدن يسهل تعليق الحلى حولهُ كالصدغين والعنق والمعصمين والعضدين والخصر والساقين والمخلخلين فيسهل ان يُربَط واحد منها بمخيط او سمط وتعلَّق بهِ الحلى او الاشياء التي تُتحلى بها كان نوعها . وتعليق الحلى بالعنق والخصر سهل جدًّا كما لا يخفى ولذلك ترى كثيرين من الافريقيين يعلقون ريش الطيور واذناب الثعالب في مناطقهم اذا ارادوا التزيُّن وقد يستعيضون عنها بالخرز او بسيور مجدولة جدلاً دقيقًا وهم يتباهون بذلك ويتفاخرون بهِ كما يتباهى غيرهم بالفرِ الحلى والحُلَل ومنها تولدت ثيابهم

ويمكن ان نقسم انواع الثياب كلها الى قسمين كبيرين ثياب سكان الجنوب وثياب سكان الشمال فالاولى مشتقة من المنطقة والقلادة ومن ذلك ثياب اهل مصر والشام والصين

واليابان واليونانيين والرومانيين القدماء . ومنها تنوعت هذه الثياب واختلفت اشكالها وموادها يمكن ردها كلها الى المناطق والقلائد فالمئزر على انواعهِ مشتق من المنطقة . والرداء والاتب مشتقان من القلادة . وثياب سكان الشمال يُقصدُ بها الدفء ولكنها لا تخلو من غرض الزينة ايضاً ومنها اشتقَّت السراويل والصدرات وكل الاثواب ذات الاردان الضيقة . وكانت اولاً من الجلود والفراء تلف بها اعضاء البدن لفّاً وفي رأي الاستاذ ستار ان الجلود أُلبست اولاً بقصد الزينة والفخار لان مَن يصطاد وحشاً يميل الى حفظ جلدهِ دلالة على صيدهِ لهُ ومن ثمَّ شاع لبس جلود الحيوانات ولاسيما الضواري منها في الاحتفالات الدينية وغيرها وعلى هذا النمط كان ملوك المصريين القدماء ورؤساء كهنتهم يتردَّون بجلود الاسود والنمورة فنتجت من ذلك الطيالس في الاقليم الحارّ والقفاطف في الاقليم البارد وحيث ان بدن الانسان واحد في الاقليمين فُسِّلَت الفراء والجلود والثياب المماثلة لها حتى تكون شبيهة بالبدن فشابهتها في الاقاليم الحارّة والباردة ولو قليلاً فترى السراويل ضيقاً في البلاد الباردة واسعاً في الحارّة

ولما اعتاد الناس لبس الثياب جعلوا يتفننون في موادها واشكالها فاتخذها بعضهم من الجلود ولم يزل الاعتماد عليها شائعاً في اماكن كثيرة . وللوحشيين اساليب بديعة في دبغ الجلود وتنميقها فيجلسون حول الجلد ويحلقون شعرهُ وينزعون منهُ فضلات اللحم وينقبونهُ بالشوك حتى يرتفع خملهُ ويفركونهُ بدقيق القرظ والدهن ودماغ الغزلان واتخذها غيرهم من اوراق الاشجار كاهالي كاليدونيا الجديدة الذين يأتزرون باوراق الاشجار . ويقال ان عامة اهالي مدارس بالهند يخلعون ثيابهم مرةً في السنة ويرتدون باوراق الاشجار اشارة الى اعتياد اسلافهم ذلك في قديم الزمان . واهالي برازيل كانوا يتخذون اكسيتهم من لحاء الاشجار فان عندهم شجرة ينزع لحاؤها قطعة واحدة كالانبوب الكبير فيلبَّسهُ الرجل ويشقُّ فيهِ شقين يخرج منهما يديهِ ويلبسهُ على بدنهِ كالقميص . وكثيرون من اهالي جزائر البحر المحيط يتخذون لباسهم من قشر الاشجار . والقشر والكساء مترادفان في العربية وفي ذلك مظنة ان العرب كانوا يتخذون ثيابهم اولاً من قشور الاشجار ولاهالي بعض الجزائر مهارة عظيمة في اتخاذ الاكسية من اللحاء فيقشرونهُ وينقعونهُ في الماء ثم يقطعونهُ قطعاً طول القطعة قدمان او ثلاث وعرضها ربع قدم ويجلس النساء يخبطنها بالمخابيط الى ان ترق وتتسع ولا يزلن يطوينها ويخبطنها حتى يصير عرضها قدر طولها ثم يلوثنها باصباغ تستخرج من عصارة النارجيل ويطرزنها بالياف وقد يمتنع من ذلك شققاً طول الشقة منها اربعون متراً فاكثر ويصبغنها بابهى الاصباغ

والظاهر انهُ لما كثر الناس واكثروا من لبس الثياب ولم تعد جلود الحيوانات وورق الاشجار وحلها تكفيهم توصلوا الى نسج الصوف والشعر والقطن والكتان والالياف وكانوا يجدلون ذلك جدلاً في اول الامر ومن ذلك الجديل والوشاح في العربية وتطرقوا من الجدل الى النسج وتوسعوا في الثياب من قلادة ووشاح يستعملان لمجرَّد الزينة الى ربطة وفوطة واحرام وازار ثم خاطوا القميص والرداء والعباءة وكانت من ذلك ملابس اهالي الجنوب. اما اهالي الشمال فالتفوا بالجلود والفراء التفافًا وكانت من ذلك الاثواب الضيقة التي يلبسها رجال الاوربيين لهذا العهد. ولمَّا تغلَّب برابرة الشمال على الممالك الرومانية اقتدى بهم رجال الرومانيين وتولَّد من ذلك زي الرجال الاوربي المتَّبع لهذا العهد اما النساء وخدَّامة الدين فحافظوا على الاكسية الواسعة التي كانت شائعة في المملكة الرومانية وفي كل البلدان الحارة ولم يزالوا محافظين عليها الى الآن

واذا صحَّ ما تقدَّم من ان اللباس مشتق من الحلى وان الغرض منهُ كان اولاً الزينة ثم اريد بهِ الوقاية وستر العورة وجب ان يقلَّ الميل الى التحلي والتزيُّن وقد كان الامر كذلك ولكنَّ النساء لم يجارينَ الرجال في الاقلال من الحلى وادوات الزينة بل حافظنَ على القديم ولذلك ترى رجال المتمدنين لا يلبسون الاَّ ما ندر من الحلى وهم يكتفون بتعليقها على اثوابهم واما النساء فلا يزلنَ يلبسنها على ابدانهنَّ فيتقلدنَ القلائد في اعناقهنَّ ويعلقنَ الاقراط في آذانهنَّ ويلبسنَ الاساور والخواتم. وقد كان غرض الانسان من التزيُّن الامتياز على غيرهِ وهو من اقوى الاسباب التي دعت الى الحضارة والعمران

هذا ولنعُد الى الموضوع الذي قصدناهُ بالذات اي ما هو اللباس الذي يحسن بخاصتنا ان يختاروهُ الآن ما دامت الحالة الحاضرة قد دعت الى شيء من التغيير فنقول

ان العامَّة ونريد بهم الفلاحين والعمَّال وصغار الباعة رجالهم ونساءهم واولادهم لا ينتظر منهم ان يغيروا ازياءهم في عام او عامين او بضعة اعوام لا سيما وانهم قلما غيروها في المئات من السنين الماضية. وقد يقع في ازيائهم شيءٌ من التغيير على غير العادة تبعًا لاحوال الصناعة والتجارة والسعة المالية والاختلاط بالغرباء. فقد يقوم معمل من المعامل يصنع طرابيش رخيصة جدًّا تقوم مقام اللبد فيبدل الفلاحون لبدهم بها. ويقوم معمل آخر يصنع نوعًا جديدًا من الجبب ويبيعهُ بثمن بخس فيرتدي بهِ كثيرون من الفلاحين وقد يجلب بعض التجار سراويل ضيقًا كالبنطلون نسيجهُ متين وثمنهُ رخيص فيستعملهُ اكثر العمَّال والصنَّاع بدلاً من السراويل الواسع ويستغنون بهِ عن القنطان الذي يلبس فوقهُ. ويأتي غيرهُ بأحذية سوداء

او رمادية متينة رخيصة تتبدل بها البُلَغ الحمراء والصفراء وهلمَّ جرًّا ومَن من ابناء هذا الجيل الذين بلغوا الستين او السبعين لم يرَ تغييراً كثيراً مثل هذا في مصر والشام والعراق واكثر البلدان الشرقية والغربية . وذلك كلهُ تابع لاحوال الصناعة والتجارة وحالة السكان المالية والمعاشية ومَن يقيم معهم من الغرباء ولا ينتظر ان يجري على قانون تسنهُ الحكومة . وليس كذلك لبس الجنود ورجال الدولة عموماً وخاصَّة رجال الامَّة الذين يرتبطون بالامور الرسميَّة و يتوخون الامتياز على غيرهم

وهنا لا بدَّ لنا من الفصل بين لباس الرجال ولباس النساء فان نساء الخاصَّة حتى المسلمات المتحجبات كسرن قيود العادات الشرقية واتبعن ازياء باريس وبرلين في اثوابهنَّ والسيجات في لباس الراس ايضاً . وسواء احسنَّ في ذلك او اساءنَّ فانهُ امر واقع وليس من غرضنا البحث فيهِ الآن ولا الكلام على الاحذية لان الخاصَّة و بعض العامَّة ايضاً قد جاروا الافرنجيين فيهِ تمام المجاراة فيبقى البحث محصوراً في ثياب الرجال ولا بدَّ من قسمتها الى الاقسام التالية

﴿ الاوَّل ثياب الجنود ﴾ الغرض الذي يرمي اليهِ كل الذين يهتمون بثياب الجنود ان يكون لونها مما يخفي بهِ الجندي عن بُعد فتركوا الالوان التي تظهر جليًّا كالاحمر واختاروا اللون الترابي كما ترى في ثياب الجنود الانكليزية والرمادي كما ترى في لبس الجنود النمسوية والرمادي الضارب الى الزرقة كما ترى في ثياب الجنود الالمانية . وان تكون مادتها مما يدفئ شتاء ويمنع امتصاص حرارة الهواء صيفاً . وان يكون تفصيلها بحيث لا تضيق على الجسم ولا تعيق حركات الاعضاء وان يكون فيها جياب كثيرة لوضع ما يحتاج الجندي اليهِ . ولعلَّ ثياب الجنود الانكليزية والفرنسوية الحديثة اصلح البسة الجنود واوفى بالاغراض المذكورة آنفاً . اما لباس الراس فلم يتفقوا عليهِ حتى الآن ولكن لا شبهة انهُ اذا منع حرارة الشمس عن الراس وظلَّل العينين من اشعتها ووقى قفا العنق منها ومن الهواء البارد فهو اصلح من غيرهِ ولعلَّ الخوذة التي يلبسها جنود الالمان اصلح من غيرها ولاسيما اذا اضيف اليها بروز فوق الجبين لتظليل العينين . وعلى كل حال لم يبقَ محل لقطر بوش في لبس الجنود اذا اريد ان يكون صحيًّا تماماً لاسيما ولان العثمانيين قد تركوهُ في لبس جنودهم مع انهُ من مميزاتهم وابدلوهُ بقبعة تشبه الخوذة الالمانية . ولعلَّ العمامة اصلح منها ومنهُ ولكن فات زمانها والرجوع اليها ليس بالامر السهل بعد ان استقلَّ بها العلماء وخدَّامة الدين

﴿ والثاني لبس الخاصة الرسمي ﴾ لاصحاب الرتب العالية حلل خاصَّة حسب درجاتهم ونوع المظاهر الرسمية التي يظهرون بها . وعقلاؤهم يشكون من لبس هذه الحلل مرَّ

ملابس الاتراك في القرن السادس عشر

من جنود الاتراك الرماة في القرن السادس عشر

أحد فرسان الاتراك في القرن السادس عشر

قاضي تركي في القرن السادس عشر

من فرسان الاتراك في القرن السادس عشر

لتتطلب صفحة ٣٦ . مجلد ٤٦

الشكوى و يودون العدول عنها ويحسدون الاميركيين الذين تحرروا منها وابطلوها ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركهُ

يحكى عن لورد كرومر ان اكره شيء عليهِ كان ان يلبس لباساً رسمياً فكان يتمرمر ويتذمر كأنهُ أُجبر على امر يكرههُ اشد الكره . ويحكى عن وزير مصري انهُ حُرم مرةً من الحضور في وليمة ملك من ملوك اوربا لانهُ لم يكن معهُ بذلة رسمية مقصبة حسب رتبتهِ ولا وجد عند باعة الثياب في لندن بذلة مثلها

والثياب الرسمية المقصبة والمزركشة والمفصلة على اشكال غريبة يستحسن لبسها البعض ويستقبحهُ غيرهم . ولا شبهة ان طلاَّب الحقيقة يقولون ان الانسان باصغريهِ لا ببرديهِ و بلسانهِ لا بطيلسانهِ ولكن فلما يسهل على امَّة ان تنبذ الثياب الرسمية وتبقى على كرامتها كما فعل الاميركيون ولذلك لا يسهل الاستغناء عنها في الاحوال الحاضرة و بعض الشر اهون من بعض . ولا داعي حينئذٍ لتقليد دولة مخصوصة لان الحلل الفاخرة مكرَّمة مهما كان شكلها لاسيما وان الناظر اليها يحسب ان كثرة بهرجتها مرتبطة بعلو رتبة صاحبها فيبقى علماؤنا وباشاواتنا بالمقصب من جبهم وحللهم الاَّ اذ اريد تنويعها قليلاً تتميز عن الجبب والحلل التركية

اما غير اصحاب الرتب واصحاب الرتب في غير الاوقات التي يضطرون ان يلبسوا فيها الحلل الخاصة برتبهم فالاوربيون منهم لبسهم الرسمي السترة ذات الذيل والصدرة المفتوحة والبنطلون الاسود ليلاً . والردنجوت والبنطلون القاتم الاون نهاراً . ويحسن بنا الاقتداء بهم في ذلك كما فعل اليابانيون وكثيرون من الشرقيين حتى لا نتاز عنهم ولا يتنازوا علينا . نقول ذلك على كرهنا وكرههم للسترة ذات الذيل

اما لبس الخاصة في غير الاوقات الرسمية فقد جارينا فيهِ الاوربيين تماماً في ما عدا الطربوش وهو عقدة الاشكال

انشأ الكاتب المتفنن محمد افندي كردعلي فصلاً مسهباً في لباس الراس نشرناهُ في المقتطف منذ احدى عشرة سنة قال فيهِ

« ولقد لفظ بعضهم هذه الآونة في مصر والشام بفتوى استصدرها احد سكان الترنسفال في الرخصة بلبس المسلمين القبَّعة (البريطة) مجاراةً لمواطنيهم من الافرنج وتفادياً من ان يتالم اذًى اذا ظلوا محتفظين بشعار رأسهم حتى كاد يوقن من لا يعرف الاسلام ان لبس القبعات (البرانيط) من الطامات وان ما تواطأ اهل هذا العصر على ستر رؤوسهم بهِ من الصوف او الفرو او القش او الحرير او القطن على اختلاف اشكالهِ هو هو عماد الدين وأسُّ

اساس اليقين . على ان الامر اقلّ مما توهموهُ واكبروهُ يناقضهُ ما ورد في الحديث الصحيح من ان الشارع الاعظم قال — كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة . وقال ابن عباس كُلْ ما شئت والبس ما شئت ما خطئتك اثنتان سرف او مخيلة »

ثم افاض في هذا البحث و بيّن كيف تغيرت العادات في لباس البدن ولباس الرأس ايضاً وختمهُ بقولهِ

« وجملة القول فان اللباس ذوقيّ حاجيّ تُعمل في تغييرهِ السادات والعادات لا الشرائع والنظامات . والجهاد يغلب فيهِ الاقوياء ويجبن الضعفاء . وما ابعد ان من قدروا ان يصرّفوا على المشرق غروباً من مذاهبهم وملابسهم ومطاعمهم ومشاربهم يتسنّى لهم يوماً ان يصبغوا العالم كلهُ بصبغتهم في كل حال من احوالهِ ليساووهم حذو القذة بالقذة والنعل بالنعل او يأتي على الجامدين تيّار مدنية المغرب فيجعلهم صرعى كأعجاز نخل خاوية »

هذا وتحضرنا الآن رواية فكاهية يستدعي المقام ذكرها

اخبرنا تاجر كبير من تجار هذا القطر قال كنت البس الجبّة والقفطان منذ نحو اربعين سنة مثل سائر اخواني وكان عندي خادم في مخزني كنت ارسلهُ في بعض شؤوني الى دار المحافظة فيقضيها . واتفق ذات يوم انهُ بدا لي شغل تعذّر عليهِ قضاؤهُ والتي يستحيث بي فذهبت معهُ الى دار المحافظة ولما وصلنا الى بابها مشى امامي ليريني الطريق فادخلهُ الحاجب من غير اعتراض ووقف في وجهي ومنعني من الدخول . فاستغربت ذلك وقلت لهُ كيف تُدخل خادمي وتمنعني انا فقال هذا خواجه وانت فلاح ابعد من هذا . وكان خادمي لابساً سترة وبنطلوناً فقلت لهُ احسنت وسرت لطيتي الى مخزن فلان بائع الثياب الافرنجية وخلعت ثيابي البلدية وارتديت الثياب الافرنجية ولم اغيرها من ذلك الحين . انتهى

ولا يلام ذلك الحاجب على ما فعل لان الثياب الافرنجية معنى اكتسبتهُ من اساطيل الافرنج و بنادقهم ومدافعهم ان لم نقل من علومهم ومعارفهم . معنى منقوشاً في النفوس والاذهان . معنى ادركهُ امراؤنا قبل علمائنا وخاصتنا قبل عامتنا . كان محمد علي يلبس العمامة والقفطان ثم رماهما ولبس الطربوش المغربي والسراويل الرومي . وكان اسمعيل باشا يلبس الطربوش المغربي والسراويل الرومي كجدهِ فخلعهما ولبس الطربوش الاسلامبولي والسترة والبنطلون الذي نقلهُ الاتراك عن الاوربيين . ولا بدَّ لنا من مجاراة الاوربيين في ملابسهم كلها عاجلاً او آجلاً كما جاريناهم في غيرها

صورة ملك سيام وأولاده وكلهم بالملابس الاوربية والبرانيط وقد صوروا امام الهرم الاكبر

المقتطف صفحة ١٣٨ مجلد ٤٦